جار مثير

وتوقعت أن يُغمى عليه وأستريح منه، لكن الذي حدث أنه بدا غير مصدِّق لم أقول إذ ردَّ باستغراب:

- وإذا كانت الطائرة تهوي إلى الأرض فلماذا لم تصل وتصطدم بها حتى الآن؟!

- ستصل إن شاء الله..!!؟

www.obeikandl.com

www.obeikandl.com

حـيـن

جلست على كرسي الطائرة، كان الراكب الذي بجانبي قد وصل إلى المقاعد قبلي.

ألقيت عليه السلام، فرده عليَّ بكل حفاوة؛ ولأن الغريب للغريب نسيب فقد وجدت في حفاوته ما جعلني أقبل عليه، وأحب الجلوس إلى جانبه.

وجلست على الكرسي المجاور له، لا يفصل بيننا إلاَّ المستند الذي يمكن رفعه، إذا ما أراد الراكب أن ينهض، أو كانت الطائرة غير مزدحمة فيوسع الركاب على أنفسهم بالتمدد أو بالنوم.

لاحظت في البداية أن جاري في الطائرة مرتبك.. وما هي إلاَّ دقائق من الجلوس معه إلاَّ واكتشفت شيئاً آخر وهو أنه متشائم أيضاً. فقد بادرني بعد جلوسي معه برهة من الوقت بسؤالي:

- هل أغلقوا باب الطائرة؟

قلت:

- لا..

ردَّ بتأوُّه وتأفف:

- أكيد سيتأخرون في إغلاق الباب!

- لا أظن.

- هل هم ينتظرون أحداً؟!

www.obeikandl.com

- لا علم لي.

ولأني على نيَّاتي - كما يقولون- ولا أعرف طبيعته المتأففة، فقد رحت أحدثه أن التأخير الذي يكون في حدود أربع دقائق أو خمس لا يُعد تأخيراً يُذكر.

هزَّ رأسه بتأفف، وسكت على مضض. فجعلت أراقب الباب وحين رأيته قد أُغلق فرحت، وقلت له بلهجة المنتصر:

- ها... لقد أغلقوا الباب!! هل ارتحت الآن؟

بمجرد إغلاق الباب ظننت أن هموم جاري قد انتهت، لكنني فيما يبدو كنت متفائلاً أكثر من اللازم، لأني لم أعرف نفسيته حتى الآن، فبعد قليل، والطائرة تسير على المدرج؛ إذا به بنفس تلك النغمة المتأففة يسألني:

- إلى الآن ما أقعلت الطائرة؟!

- ستقلع إن شاء الله.

- ولكنها إلى الآن تسير على الأرض؟

- مازال الوقت مبكراً.

قال بعد ذلك بتحسر:

- الله أعلم!! ربما لا تستطيع الطيران.

رددت عليه وقد بدأت أعصابي تثور رغماً عني:

www.obeikandl.com

- وما الذي يدريك؟

- لا يحتاج الأمر إلى (شطارة) .. لو كانت الطائرة سليمة لأقلعت منذ زمن.

- لماذا أنت مستعجل هكذا؟

- أنا فقط متخوف أن يكون بها أعطال لا سمح الله!

رددت:

- لا سمح الله (ثم أضفت)، هل تريدها بلمحة طرف أن تقفز إلى طبقات الجو العليا؟ الأمر يحتاج صبراً ...!! واستنفرت كل ما لدي من مخزون نفسي وشحنة عاطفية، وأنا أقول له:

- يا شيخ توكل على الله قل : يا ربِّ! وستسير الأمور على خير بإذن الواحد الأحد سبحانه.

ردَّ:

- الله يستر.. الله يستر..

كانت الطائرة قد بدأت تشق أجواء الفضاء.. ومكبر الصوت يردد بعذوبة وصفاء دعاء السفر. دعاء ما أروعه! وما أجمله! وما أحسنه!

و مضيت أنا وجاري نردد أيضاً هذا الدعاء، وكنت أنظر إليه بكثير من العتاب، فلم يحدث حتى الآن ما يستوجب خوفه وقلقه،

www.obeikandi.com

فلا الباب تأخروا في إغلاقه، ولا الطائرة تأخرت في الإقلاع، وليس هناك ما يستدعي واحداً بالألف من توقعاته التي لا أساس لها من الصحة، ولذا ظننت مرة أخرى، وبعد هذا الوقت الجميل مع الدعاء النبوي الكريم؛ أن قلق جاري قد توقف عند هذا الحد، ففرحت، وإن لم أستطع أن أمنع قليلاً من الشماتة أن تمتزج بتلك الفرحة.

ومع ذلك فسحنة وجهه وعبوسه، جعلتني أُدرك أن الكتاب يُعرف من عنوانه، وأن مهمتي في هذه الرحلة ستنحصر في تهدئة أعصاب جاري، وتقديم تعليل مناسب لكل شيء من الأشياء التي يسأل عن سببها، ولذا رأيت أن أحشر وجهي بين صفحات مجلة الطائرة، وعلى الرغم من أن هذا العدد من المجلة قد قرأته في رحلة سابقة؛ إلا أنه جاء رحمة من الله تعالى تكفيني المضايقات، وأنا أقول بيني وبين نفسي: "سبحان الله العظيم..!! رجل بهذه التخوفات، كيف له أن يعيش، ويواجه الحياة بصعوباتها ومشكلاتها".

ويبدو أنني كنت واهماً حين تصورت أن القراءة في المجلة سوف تحول دون أسئلته التي تهز البدن، فعبر ساعة أو أقل قليلاً انهال عليَّ سيل من تساؤلاته الغريبة، ووجدتني بالرغم من الاحتياطات الأمنية التي عملتها معه، والتحفظات التي أحطت نفسي بها قد أجبته، وهدأت روعه، في جملة أمور منها:

أن الغداء لم يتأخر.

وأنه لن يكون بارداً.

وأن دورة المياه ليس عليها زحام.

وأن أقنعة الأكسجين ستنزل تلقائياً عند الحاجة إليها.

وأن الطائرة لا تقلع إلا بعد فحص دقيق... دقيق - لا يغني عن الثقة بالله تعالى - ولكنه يدل على أن كل الأسباب قد هُيئت للسلامة.

كما طمأنته أن رائحة الحريق التي توهمها ما هي إلا رائحة (سجائر) وأن المضيف قد تنبه لذلك فمنع المدخن من مواصلة التدخين.

وحقيقةً فقد شعرت أن من الأخطاء الكبرى في حياتي جلوسي بجانب هذا المتخوِّف. ولأنه لاحظ أنني بدأت أستثقل دمه، وأستثقل أسئلته فقد وجدته يقول:

- لا تؤاخذني... فأنا أخاف ركوب الطائرة.

- من أجبرك على ركوبها؟

- مكتوب يا أخي..

- إذا كنت تخاف إلى هذا الحدِّ، فعليك أن تعتقل خوفك في نفسك.

- أنت غاضب مني..

- لا توزِّع خوفك على أحد، ثم تأكد أن السلامة في الطائرات أكبر بكثير من كل وسائل النقل الأخرى.

www.obeikandi.com

ومضيت أذكر له ما بقي في ذهني من دراسة دقيقة أجرتها منظمة الطيران العالمية (إياتا) وخرجت بتلك النتيجة المدهشة وهي أن الطيران أكثر وسائل النقل أمناً وسلامة.

على العموم، فقد استطعت بحمد الله أن أجيب عن أكثر تساؤلاته، إن لم يكن عن كلها. وليست (شطارة) مني إذ كلها تساؤلات ساذجة - من وجهة نظري على الأقل - وهدأت الأمور بعض الشيء، فسعدت وشعرت أن جاري قد ذهبت مخاوفه، ولكنه كان الهدوء الذي يسبق العاصفة، فرجعت إلى صفحات المجلة أقرؤها للمرة العاشرة، ومضى ينظر إلى السحب من نافذة الطائرة، وفي هذه الأثناء مرَّت الطائرة بـ (مطبَّات هوائية) فإذا بها ترتج وتضطرب، وتعلو وتهبط، وتهتز يمنةً ويسرة، فيما كان مضيف الطائرة من خلال (المكرفون) يدعو إلى عدم ترك المقاعد حتى تُطفأ إشارات ربط الأحزمة.

وتماسك صاحبي في بداية الأمر عن أن يسأل، وهو الذي علم بتضايقي من أسئلته، ولكن شجاعته خانته فإذا به يقول لي:

- كل هذه مطبات هوائية؟!

- نعم.

- لا.. أظن ذلك؟

www.obeikandl.com

- وماذا تظن؟

- لا شيء..

ويبدو أنني رحمته، أو هكذا خُيِّل إليَّ فشرعت أحدثه أن هذا الشيء طبيعي، بسبب المرور بتيارات هوائية، وهي فترة مؤقتة إن شاء الله، لكنه لم يقتنع كعادته، بل قال: غاضباً:

- أنت!! إمَّا أنك لا تعرف السبب!! أو أنَّك لا تريد أن تخبرني به (ثم أضاف): يبدو الأمر خطيراً!!

ولم يكمل عبارته الأخيرة إلا ونحن نسمع (فرقعة) شديدة، تأثر لها أكثر الركاب، وأُطفئت من أجلها الأنوار الداخلية للطائرة.

فقال بلهجة غاضبة:

- وهذا الصوت الشديد، ما هو؟؟؟

وهنا شعرت أن عليَّ أن أتمتع بحقي الطبيعي في الغضب، ويكفي عليَّ ما فعلت من مراعاة خاطره، وتلطيف شعوره، ووثقت أنني لو استمريت على أسلوبي فسأكون على حافة الجنون؛ ولذا قلت بكل قوة وجسارة:

- هات أذنك أسرُّ بالسبب لكي لا يسمعه أحد!!

نظر باندهاش وقال:

- موافق..

www.obeikandl.com

- إن أحد محركات الطائرة سقط منها وهي تهوي الآن على إثره إلى الأرض.

قطَّب جبينه وهو يقول:

- أجاد أنت؟

- كلَّ الجدَّ!

وتوقعت أن يُغمى عليه وأستريح منه، لكن الذي حدث أنه بدا غير مصدِّق لما أقول إذ ردَّ باستغراب:

- وإذا كانت الطائرة تهوي إلى الأرض فلماذا لم تصل وتصطدم بها حتى الآن؟!

- ستصل إن شاء الله..!!؟

نظر إليَّ بين مصدِّق ومكذِّب وقال:

- يا شيخ قل خيراً يقوله الله..

- هذه هي الحقيقة..

وبدا عليه فوراً القلق والهمُّ، إلى الحد الذي جعلني أرحمه.. وحين مضى وقت طويل ولم يحدث ارتطام الطائرة بالأرض تأكد له أنها مزحة، ومزحة ثقيلة أيضاً؟! ونظر إليَّ كالعاتب، أما في داخلي فأكاد أنفجر من الضحك.

www.obeikandl.com

بعدها استرحت منه ومضت مدة، ثم عادت الأمور في الطائرة إلى ما كانت عليه، وأُضيئت الأنوار، وسُمح للركاب بالتجول داخل الطائرة، وغدت الطائرة تطير بهدوء وانسياب.

وقد عدَّها مزحة لا يمكن أن يسامحني عليها، أما أنا فقد وجدتها نعمة كبرى، أراحتني من أسئلته المثيرة للحنق والغضب!! فلم يسألني بعدها أيّ سؤال!!

في هذا الوقت وزَّع مضيفو الطائرة الطعام على الركاب، فأقبلت بشهية مفتوحة ألتهم وجبة العشاء التي قدمت لي، بينما (انسدت) نفس جاري فأعاد الوجبة كما جاءت.

وحين وصلت الرحلة بسلام تحقق لديَّ أن على شركات الطيران أن تعدَّ توابيت خاصة لنقل أمثال هذا الرجل، فلا يفتح عينيه إلا وقد وصل المحطة القادمة، أو على الأقل تُعطي تخفيضاً لا تقل نسبته عن خمسة وسبعين بالمئة من سعر التذكرة لمن ابتلي في الطائرة بمثل ذلك الإنسان النكد. مع ثقتي أن أحداً لن يقبل الحل الثاني حتى لو كانت التذكرة بالمجَّان!!

www.obeikandl.com